من شؤون المسلمين والعالم

سياسة الانفراج في أوروبا

وسياسة بسط النفوذ في بلادنا

تشهد العلاقات بين الشرق والغرب في الوقت الحاضر نشاطاً واسع النطاق ، يتميّز بالخوف من ضياع منجـــزات مرحلة الانفراج الدولي بين المعسكرين خلال السبعينات ، وتُبذل لهذا الغرض جهود كبيرة في مؤتمر مدريـــد للأمـــن والتعاون في أوروبا ، وهو المؤتمر الثالث من نوعه بعد مؤتمري هيليسينكي وبلجراد .. كما بذلت وتبذل جهودٌ كبيرة على مستوى الاتصالات الثنائية لنفس الغرض ، وتلعب فرنسا وألمانيا الاتحادية في هذا المجال دوراً هاما

ولا حاجة للخوض في تفاصيل العلاقات بين الشرق والغرب ، ولا في الخلافات التي يعدّدها الطرفان أو أحـــدهما كالموقف إزاء بولندا والاحتلال السوفيتي لأفغانستان أو كمفاوضات الحدّ من التسلّح .. ولا فيما تحقق أيـــضاً مـــن تعاون كبير بين المعسكرين ، على المستويات الاقتصادية والثقافية والفنية والعلمية والرياضية .. بل يكفي إبراز أمـــر رئيسي ، وهو أنّ هذا التعاون في ظلّ الانفراج قطع أشواطاً كبيرة –رغم الخلافات والأزمات– وحقق لكلا الجانبين ميزات ومصالح مادية لا يريدان الاستغناء عنها ما أمكن ذلك

والذي يمكن أن يثير اهتمام الفرد المسلم وهو يتابع هذه التطورات ، أنّ الانفراج الدوليّ والتعاون بين المعسكرين اقتصرا واقعياً على القارة الأوروبية في الدرجة الأولى ، وحققا الميزات لسكانها وسكان أمريكا فحسب ، أمّـــا مـــا يسمّى بالعالم الثالث –وبلداننا الإسلاميّة هي الجزء الأعظم منه– فبقي طوال السبعينات ولا يـــزال إلى الآن مـــسرح صراع النفوذ أو التفاهم الضمنيّ على اقتسام مناطق النفوذ بين المعسكرين

بل يمكن القول ، إنّ الانفراج الدوليّ في أوروبا فسح المجال للمعسكرين لتوسيع نطاق نفوذهما في العالم الثالث .. وكانا حريصين على ذلك بعد ازدياد ظهور أهمّيته وإمكانية قيامه بدور فعّال في مستقبل البشرية ، لو أمكن له تنسيق جهوده وقواه والخروج من فلك التبعيات ليسيطر بنفسه على مصادر قوته الاقتصادية والبشرية الكبيرة

وهكذا كانت الصدامات المحلّية المتزايدة تحقّق في الدرجة الأولى أهداف المعسكرين ومـــصالحهما ، وفي بعـــض الأحيان مصالح ذاتية محدودة لهذا الطرف أو ذاك .. غير أنّها كانت على الدوام تزيد حجم التبعيات وخطورتها

من الأمثلة على ذلك ما جرى من صدامات ووقع من تطوّرات في منطقة القرن الإفريقي ، وأفغانستان ، وعلـــى مستوى المحيط الهندي ، وفي عدد من البلدان الإفريقية مثل تشاد وأوغندا وأنجولا وغيرها

ولعلّ من أبرز ما يوضّح للفرد المسلم معنى هذا التطوّر في طبيعة العلاقات الدولية (وبغضّ النظر عن دور الصين الشعبية على مسرح السياسة الدولية) أن يقارن مقارنة بسيطة بين موقف المعسكر الغربيّ إزاء المعسكر الشرقي بشأن قضية أفغانستان قبل عام واحد وقضية بولندا في الوقت الحاضر

التحرّكات العسكرية السوفييتية قبيل غزو أفغانستان وازديادُ النفوذ السوفييتي الاقتصادي والسياسي والفكـــري والعسكري داخل أفغانستان من قبل .. كلّ هذا كان مرصوداً معروفاً من جانب المعسكر الغربي بزعامته الأمريكية ، ولكنّه لم يؤدّ إلى أكثر من الإثارة الموجزة (الروتينية) في بعض المؤتمرات الصحفية الدوريـــة للمـــسؤولين في البيـــت (الأبيض)

والتحرّكات السوفييتية وغير السوفييتية على الحدود البولندية في الوقت الحاضر مرصودة ومعروفة أيـــضا .. أمّـــا ردود الفعل الغربية الموصوفة بأنّها حذرة للغاية ، فقد بلغت من حيث المواجهة درجة التهديد القـــاطع والإجمـــاعي بانتهاء عصر الانفراج الدوليّ ، وقطع سائر العلاقات السياسية والاقتصادية والدبلوماسية مع السوفييت إذا أقدموا فعلاً على غزو بولندا عسكرياً تحت ستار أيّ ذريعة .. كما بلغت ردود الفعل درجة عالية علـــى صـــعيد الإجـــراءات (الإيجابية) الهادفة إلى الحفاظ على وضع بولندا الجديد من جهة وعلى وضع الانفراج في مجموع أوروبا مـــن جهـــة أخرى .. فكان تقديم المساعدات المالية الفورية لبولندا بالمليارات ، فضلاً عن تصدير ما قيمته خمسمائة مليون دولار من المواد الغذائية بأسعار مخفضة وعلى أساس قروض طويلة الأمد .. بل يمكن القول أيضاً إنّ مسارعة رجال المـــال الألمان الغربيين في الإعلان عن حرصهم الكبير لإتمام صفقة القرض المالي الألماني بقيمة عشرة مليارات دولار للاتحـــاد السوفييتي (مقابل الغاز الطبيعي من السوفييت) .. هذا الإسراع مع مواقف مشابهة ينسجم تماماً مع الجهود المبذولـــة للحفاظ على الانفراج في القارة الأوروبية بالذات بأيّ ثمن (خارج أوروبا) وبكلّ سبيل على صعيد العلاقات المباشرة .. بما ذلك الإغراء بالمال

أما (التعليل الساذج) بأنّ أمريكا والغرب من ورائها قد تعلّموا من أزمة أفغانستان .. فتحرّكوا الآن هذه الحركة الفعّالة لمواجهة أزمة بولندا .. هذا التعليل يمكن تصديره إلى بلادنا الإسلاميّة فيتلقّفه من يـــصرّون علـــى اســـتمرار صداقتهم للغرب بزعامته الأمريكية ، ويتخذونه حجة من الحجج في محاولة تبرير سياستهم هذه .. والواقع أنّ هـــذا التعليل ظاهر الضعف والزيف ، ولو أن أمريكا مع خبراء السياسة الدولية فيها كانـــت في حاجـــة إلى دروس قبـــل أفغانستان لوجدت ما يكفيها في أنجولا والقرن الإفريقي وسواهما ..

إنّما يمكن للغرب قبول الوجود السوفييتي بأفغانستان المسلمة فهذا يتمّ وفق موازين النفوذ صراعاً أو اقتساماً ، ولا يمكن له القبول بغزو سوفييتي لبولندا الأوروبية بعد تبدّل الوضع فيها ، لأنّ هذا يخلّ بموازين الانفراج الدولي ، المركّز على أوروبا من الأصل ..

وقد تردّد كثيراً في أجهزة الإعلام الرسمية ببلادنا الإسلاميّة ، أنّ عجز الغرب عن مواجهة غزو أفغانستان يعـــود لأسباب عديدة ، فتارة يقال إنّ أمريكا لم تجد التأييد الكافي من جانب الدول الأوروبية الغربية ، وتارة أخرى يقـــال إنّ أمريكا لم تكن تملك في المنطقة (قوّة الردع) الكافية ، وتارة ثالثة يقال إنّ أمريكا والغرب وجدوا أنفسهم أمام أمر واقع فوجود السوفييت في أفغانستان لم يكن جديداً بل اتخذ بالغزو الطابع العسكري فحسب ..

تردّد أجهزة الإعلام الرسمية ، كما تردّد ألسنة المسؤولين هذه الحجج .. في بلادنا الإسلاميّة التابعـــة للمعـــسكر الغربي خاصة ، ويبرّرون بذلك تجاوبهم الكبير مع مجموع ما أرادته أمريكا في منطقة بلادنا الإســـلاميّة مـــن قواعـــد وتسهيلات عسكرية ، وتأييد إلى درجة الخضوع في كثير من المواقف السياسية الحسّاسة في قضايانا المصيرية ، فضلاً عن التعاون الاقتصادي -إذا صحّت تسمية علاقات بلادنا بالغرب تعاونا-

وبالمقابل يتخذ أنصار المعسكر الشرقيّ في بلادنا الإسلاميّة من المواقف الأمريكية الرهيبة في قضية فلسطين وسواها .. ذريعة لتبرير استجابتهم لما يريده السوفييت داخل أرضنا

وفي كلا الحالين يزداد نفوذ المعسكرين في بلادنا الإسلاميّة

ولو نظرنا إلى هذا كلّه نظرة تحليل موضوعية ، لوصلنا دون حاجة إلى تفكير طويل لنتائج واضحة :

١- المعسكران حريصان على الانفراج بينهما ، ولكن في أوروبا فقط
٢- المعسكران حريصان على اقتران هذه السياسة بسياسة بسط النفوذ في بلادنا بصورة خاصة
٣- تنفيذ هذه السياسة قائم عن طريق أنظمة الحكم التابعة للمعسكرين داخل بلادنا

ويبقى مثال أفغانستان مجالاً حيّاً لتوضيح الطريقة (الحديثة) المتّبعة في تنفيذ سياسة بسط النفوذ في عصر الانفراج (الأوروبي) ..

إنّ سكوت الغرب واقعياً المقترن بضجّته إعلامياً إزاء الغزو السوفييتي لأفغانستان حين وقوعه ، لم يكن لجهل ولا عجز .. وإنّما كان نتيجة قبول مبدئي بهذا الغزو رغبة في إيجاد أوضاع تبرّر للغرب والدول التابعة له أن تفتح أبواب بلادنا الإسلاميّة لمضاعفة نفوذه فيها بحراً وبرّاً وجوّا .. سياسة واقتصاداً وفكرا

وإنّ عدم فعّالية (المقاطعة) الغربية للسوفييت بعد غزو أفغانستان ، لم يكن نتيجة جهل بأبعادها أو عجز عن تحقيق أهدافها ولا نتيجة (خلافات داخل المعسكر الغربيّ) .. بل لأنّ المقصود بها من الأصل لم يكن السوفييت أنفسهم ، بل (الحملة الإعلامية) تجاه شعوبنا المسلمة

ويتجاهل القائمون على هذه الحملة أو المساهمون في نشرها ببلادنا أنّ الحبوب الأمريكية بقيت تتدفّق على الاتحاد السوفييتي بحجة وجود اتفاقات جارية سابقة ، كما استأنفت كندا تصدير الحبوب إلى الاتحاد السوفييتي بعـــد فتـــرة وجيزة من المقاطعة الظاهرية ، فضلاً عن التعويض على ما كان السوفييت راغبين في الحصول عليه الولايات المتحـــدة الأمريكية زيادة على الاتفاقات التجارية المعقودة و لم يحصلوا عليه بسبب (المقاطعة) .. كان هذا التعويض عن طريق دول غربية أخرى مثل أسبانيا . وفيما عدا هذه المقاطعة المزعومة ، لم يتخذ الغرب إجراء فعّالاً واحداً يستحق الذكر .. ويبرّر تصويرَ أمريكا من قبل أنظمة حكم بلادنا ، كما لو أنّها (صديقة حريصة) على الـــدفاع عـــن الإســـلام والمسلمين وأرضهم ومياههم ونفطهم .. أو كما لو أنّ مصالحها تلتقي بالفعل مع مصلحة الشعوب .. ولـــيس مـــع المصالح الذاتية لتلك الأنظمة فحسب!

إنّ قضية أفغانستان ، كقضية القرن الإفريقي من قبل ، قضية (مقايضة) بين الشرق والغرب ، واتفاقات ضـــمنية بين (الكبار) ، يحدّدون بموجبها (الخط الأحمر) الفاصل لمناطق النفوذ ، ويرضون عنه كيلا يتطّور صدام محلّـــي مـــا بضحايا محلية ، إلى صدام بين المعسكرين يمكن أن يدفع سكانهما ثمنه

والأسلوب المتبع في تحقيق الاتفاقات الضمنية ، هو هذه (المسرحيات) السياسية الكـــبرى لتبـــادل التهديـــدات والاتهامات والمقاطعات .. إذ لا يمكن بدون ممارستها أن يحصل أتباع الشرق وأتباع الغرب في بلادنا على (مبررات) ظاهرية ، وهم يضاعفون درجة التبعية مع الهوان والتذلّل في كثير من الأحيان ، كلّما حلّت (مناسبة) جديدة .. مثل أفغانستان

وعندما تعي الشعوب حقيقة المعسكرين وما يريدانه في أرضنا ، وتعي حقيقة عجزهما عن بلوغ ما يريدان لـــولا (الأدوات) الموجودة في أيديهما على صورة أنظمة حكم استبدادية على الشعوب ، تابعة لأعداء الشعوب .. فآنـــذاك تصبح هذه الشعوب بالذات قادرة من خلال وعيها واعتماداً على أصالتها أن تتقدّم هي مباشرة لمواجهـــة أطمـــاع المعسكرين معاً مواجهة حقيقية لا يمكن أصلاً أن تصدر إلاّ عن الشعوب نفسها

وإنّ تمادي المعسكرين في سياسة بسط النفوذ ، وتمادي الحكام في تنفيذ هذه السياسة واقعياً وفي ممارسة الاستبداد الضامن لاستمرارها .. هذا التمادي سيساهم من حيث لا يريد في يقظة وعي الشعوب على المستوى المطلوب

وكلما ازداد وعي الشعوب ازداد التفافها حول طلائعها الإسلاميّة العاملة المجاهدة ، لتسير بها ومعها من نصر إلى نصر على طريق استعادة سيادتها وتحرّرها من كلّ طاغوت داخليّ وخارجي ، على طريق تحقيق أهدافنا الإســـلاميّة الكبيرة ، في التحرّر والعزّة والكرامة ، والوحدة والتقدّم والقوّة ، وإقامة حكم الله العادل في الأرض ..